

# حبة البندق

سعود الأسدي

قالت النورية عليا، وهي تقرأ الكفّ تحت الزنلخنة في ساحة دارنا، لجارتنا أمّ حسين: «شوفي يا خيتا يمّ حسين، صحيح إحنا النورّ شخّادين، والناس بقولوا عنّا إنّنا لا ذمة ولا دين، لكنّ مينّ مثلنا بعرفّ يضرب الودع، ويعمل البدع، ويقرأ الكفّ، وينقر عالدّف، ويفتح بالفنجان، ويسحر الزلام والنسوان، ويداوي الحبل، ويعالج الحول..»

وكمّنّ لدغتها أفعى سحّبت أمّ حسين كفّها من يد النورية وقالت: «أجّت وألله جابها، بالله عليك يا عليا تعيدي شو قلتي!»

أعدت النورية ما قالتها، وزادت أمورًا لا تحظر ببال. ولكنّ أمّ حسين لم تهتمّ بما سمعت إلاّ بعبارة «يعالج الحول»، فعدلّت جلسّتها، وأقبلت على النورية بكلّ جوارحها وقالت: «صحيح إنكو بتعالجوا الحول؟!» فأجابت النورية بكلّ ثقة: «نعم يا سّتي، مُعالج الحول، فقربت أمّ حسين رأسها من النورية أكثر، كمّنّ تريد أن تطلع على سرّ عميق، وقالت: «دَحَلِك، كيف، وببيش؟» فأغمضت النورية عينيها المكحلّتين، وأخذت تنوس برأسها ذات الشمال وذات اليمين، وقالت: «عليكي نور، يمّ حسين أنا بعالج الحول بأبسط دوا. بحبة بندق.»

- بحبة بندق؟

- أي نعم، يا سّتي، بحبة بندق بعْمِل العَجَب.



كان زقاق قريتنا الضيق يكتظّ قبيل الغروب بأبقار القرية العائدة من المرعى، يسوقها راعي العجال، ويُنهرها بصوت أجشّ شاتماً البقر وأصحابه.

وبيت عمّي «أبو الشيخان» الطيني الواقع وسط الحارة ملتقى ثلاثة دروب، وشبّاكّه مفتوح دائماً، ويفضي إلى طريق صخرية صقلها الدوس عليها بالأقدام، وتدقّق مياه الأمطار خلال العصور والأجيال.

لأبي الشيخان بنات عشر، ولا أولاد ذكوراً له. وصياح بناته، ومنازعاتهنّ، وأغانيهنّ، تتداخل وتملاّ فضاء بيته والزقاق المجاور بنت أبو الشيخان فاطمة حولا، وحولها بارزٌ جداً. والناس في قريتنا لا يبالون بلصق العيب أو التشويه بصاحبه، فكانوا يقولون: «وينك يا حولا؟» و«شو بتعملي يا حولا؟» و«أجّت الحولا» و«راحت الحولا.»

قالت الجارة أمّ حسين ببشاشة، وهي جالسة على عتبة بيت جارتها أمّ الشيخان تُرّقع ثوب ابنها الوحيد حسين، وتخيظ عراويه وأزاره المقطعة: «بشارة عندك يا جارتنا. دوا حول بنتك فاطمة عندي.»

قالت أمّ فاطمة بسخرية: «وشو هالدوا اللي عندك يمّ حسين، يا دكتوره؟»

قالت أمّ حسين بجديّة: «أي نعم دكتوره. والدوا أبسط من بسيط. هاتيك حبة بندق!»

- حبة بندق؟! ومنين أجيبك حبة بندق يا خايسة؟! ولأ شايقتيني يا بندوقة كلّ يوم بتنقل بندق وفردق؟!!

- فشّ حدا منكوا رايح عالمدينة؟ روحوا عالمدينة! وهاتوا حبة بندق!

قالت أمّ حسين غير أبهة، وقطعتُ خيط إبرتها بأسنان تشبّه أسنان الثوم المعطوية.

أمّا أنا، ذلك الصبي الصغير، فلم أكن أعرف للبندق شكلاً أو صورة، ولا أظنّ أحداً من أترابي كان قد رأى حبة بندق عند أهله أو عند جيرانهم. ولكنّ قيل أمامي مرّة إنّ العيد أسعد، وهو جارنا الحيط بالحيط، لديه بندقية مخبّأة في معصرة دار صنع الله منذ ثورة ٣٦، فلننت لأول وهلة أنّ البندق هذا شيء خاصّ بالبندقية، ولعله رصاصها.

مضت أسابيع، ولما عَلِمَ أطفالُ حارتنا أَنَّ حَبَّةَ البندقِ جُلِبْتُ من المدينة ترحموا مثلَ سخول هزيلة على باب بيت أم الشيخان ليروا معجزة شفاء فاطمة بنت أبو الشيخان من الحَوْلِ بحَبَّةِ بندقٍ على يد الجارة أم حسين.

وبعد انتظار ساعة أو أكثر حضرت أم حسين وهي تنوء بوركين كقوربتين مفوختين، وتنفّض ساعدين مشمرين كمخباطي نخل من رغبة صابون الغسيل، فتطير الرغبة رذاذًا كتطاير الفَرَّاش الصغير عن سدة الشعر.

- هاتي يم الشيخان مسلّة! يلاً قومي، حاجي باركه

وانتظر الجميع، حتى رفوفُ عصافير الدوري وحمامُ السطوح، متلهفين لرؤية العجيبة التي ستأتي بها أم حسين.

ثقبَت أم حسين حَبَّةَ البندقِ بالمسلّة بعد أن حَمَّنُها بنار الموقدة إلى درجة الاحمرار، ففاح شيعيها كشعيط بَغْرَةٍ تيس ماعزٍ اکتوت بجمرة من مرمعون الطالبون. ونفخت على الحَبَّةِ نفختين، وشكّتها بخيظ مصيص متين. وبعد أن تمتعت عليها عدة آيات، وانتخت بجدها الأسد أبو السباع، علّقَها بخصلة من غرّة فاطمة من جهة اليمين بمستوى بؤبؤ الحولاء، ودعت بصوت مسموع «يا شافي يا معافي!» وتركت الحَبَّةَ تنوس كرقاص ساعة أمام عين فاطمة، والكل على غير عادة في صمت ودهشة ووجوم، ثم قالت:

- شوفي يا فاطمة يا بنتي. ظلّي انظري ع الحَبَّةِ بذنبه عينك، وحلّي عينك دايمًا تتحرك معها عالجنبين! شهر شهرين زمان، عينك بتصح ويتصير بإزن الله العاده وزياده.

قلبت أم حسين شفقتين غليظتين كأصابع زينب. وكمن تُغربل الحَبَّ حركت يديها عدة مرّات وقالت: «عيش كثير بتشوف كثير. م المجانين ولا ناس. منعيش ومنشوف تنعوف.» وأخذت تُطرد الأولاد «يلاً يا أولاد، خلص عاد. حلوا! حاجي مثل اللي متحرجمين ع طبيخ عرس.»



لم أكن أعرف، ولا أحد من الجمع يعرف، سرّ حَبَّةِ البندقِ ودورها في الشفاء. ولكن أم حسين علّقَها بغرّة فاطمة بمستوى عينها الحولاء وقالت «يا شافي يا معي» وتركتها تنوس.

في كلّ مرة كنتنا نحن الأولاد نلتقي في الحارة أو على البيادر لنلعب الغمّيضة، كنت أغافل فاطمة عندما يأتي دورها وتغمض عينيها لنختبئ، فأتيها من جهة عينها اليمنى، فالس حَبَّةَ البندقِ بأطراف أصابعي لمسًا ناعمًا، وأتحنّسها بدفء لأعرف سرّها. كانت فاطمة تشعّر بلمستي أحيانًا فتضربني على يدي بشدة، وتدعو عليّ «كسار يكسر إيدك!» وتدعو خلفي كذئبة شرسة، وأعدو أمامها كأرنب جبان

كم تمنيت في لحظات شرودي لو أنني أختلس حَبَّةَ البندقِ تلك من غرّة فاطمة كما يحنّس نقار الخشب حَبَّةَ اللوز الفرك من لوزة عمي أحمد عباس المحاذية لجدار المسجد، ويطيّر بها، ويكسرها بمنقاره الحادّ تمنيت ذلك ألف مرّة، حتى رأيتني قد صرت ذلك النقار الخشب فطرتُ بجناحين قويين، وهويت من أعلى، واختلست حَبَّةَ البندقِ المعلقة بغرّة فاطمة. ويا لفرحي وأنا أطيّر بها بعيدًا، وأحلق عاليًا، وفاطمة تزعق وتصرخ: «جاي يا غلمان جاي.» ولما تواريت عن عينها هبت عليّ فجأة ریحٌ شديدة لوت جناحي فلم أستطع مغالبتها، وساقنتني إلى جهة فاطمة، فهبطت كما يهبط الطيارُ قسرًا. وقيل أن تصل فاطمة إليّ وأنا مسجى على الأرض، فتأخذني وحبتي غنيمَةً باردة، قبضت بيدي على حجر، وكسرت الحَبَّةَ برفق، فوجدتها حَبَّةً.. فارغة!